الحرية في المذهب الوجودي

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

— ٢ —

تكلمنا قبل هذا عن الحرية في الوجودية من وجهة النظر الميتافيزيقية . ونحاول الآن أن نحدد خصائصها على نحو واقعي في المذهب الأخلاقي الوجودي إن صح أن الوجودية أخلاقا بمعنى الكلمة . والذي يتبين لنا من أول الأمر أن المذاهب جميعها في فرنسا — وليست الوجودية فحسب — تحاول أن تقدم للناس في هذه الفترة الحديثة نظريات أخلاقية مختلفة بالإضافة إلى ما تقدمه من التفسيرات الفلسفية والفكرية وما يحلو لها أن تذيعه من الأصور والآراء . بل إن الجانب الأخلاقي يطغى على كل ما عداه من الجوانب الأخرى في فلسفات الفرنسيين المحدثين ، ويظهر بشكل واضح بين الأنظار الكثيرة حتى لتحسبه الأوحد من بينها في الأهمية والخطورة . ولعل الحياة الفرنسية اليوم هي التي تتطلب هذا كله وتقتضي من كل مذهب فكري أن ينحرف في هذا الاتجاه تبعاً للحاجة الأصلية في نفسية الأمة والعوز الروحي في تكوينها الحضاري . أو لعل الصلة القوية التي يحس بها الفرنسيون بين حياتهم المادية وأنظارهم العقلية ، أو بين وجودهم ومعرفتهم ،على حد تعبير الفلاسفة ، هي التي تلح عليهم وتدفعهم دفعا إلى ابتكار مجموعة من القواعد الوضعية التي تلائم ما في نفوسهم من ثورة وما في قلوبهم من ارتياع .

وتأتي الحاجة إلى مثل هذا الاتجاه في نفسية الأمة الفرنسية من أنها ظلت أمداً طويلا تمثل الأمة المفكرة وتقوم بدور الشعب الفيلسوف وتخسر في سبيل ذلك كله غير قليل من الجاه والسطوة العمليين في الحياة : فكما أن الأديب الذي يشغل نفسه بمسائل الفن ويملأ عقله بالتأملات الروحية بعيد كل البعد عن نطاق الواقع المحدود وآفاق العمل اليومي ، بقيت فرنسا – وهي دولة الفكر الأولى – غارقة في التخيل والنظر العقلي ، زاهدة في الأفعال الواقعية المنتجة ، مدفونة بين صحائف الشعر وسكرات الليل وظلمات القبور . وجاءت الهزيمات متتالية في الميدان السياسي ، وتدخلت الظروف على أسوء نحو في المعيشة الفرنسية فجعلتها ضربا من المأساة التي يعاني صاحبها أكثر مما يعاني الهائم بين أشواك الورد . وتطلع الناس من جراء هذه الخيبة المتكررة في حياتهم إلى نوع من الخلاص كما يقول المسيحيون أو نوع من النجاة كما يقول المسلمون . وتبين هذا العوز في محاولاتهم المتكررة لإيجاد ناموس أخلاقي يعين على رفع الظلمة ويساعد في كشف الغمة ، وظهر عملهم واضحا في جملة التآليف الفكرية التي اتخذت موقفاً وضعياً قبل كل شيء .

ونحن المصريين محتاجون إلى غير قليل من هذا الاتجاه . فأخلاقنا تنبني في أصلها النظري على الأديان السماوية حتى اليوم ، وانشغل الكثيرون عن الدين إلى أشياء أخرى وتطورت الحياة تطورا ملموساً فضاعت الأخلاق النظرية والعملية معا إذ أن الرجل المتدين يأتي كثيراً من السخافات اعتماداً على رضى الله وتوفيقه على تأييده له على طول الخط . وأستطيع أن أقول على شكل ملاحظة بسيطة أن معظم الأفعال البعيدة عن الجد والوقار والخارجة عن نطاق الفضيلة الصحيحة إنما يأتيها قوم متدينون

الفردي والإحسان الفردي إلا انعكاس للرحمة الجامعة والألم الجامع والإحسان الجامع ...

إن علينا نحن القصاصين واجبات وأوزاراً : علينا أن نشرك الناس دائماً في شعور واحد ، وأن نرمي بكل ما نملك من جهد إلى غاية مثالية هي حفز دوافع الخير والكرم في النفوس ، وعطف هذه النفوس بعضها على بعض ، وتوجيهها وجهة سامية تكون قبلة الجميع وملتقى إرادتهم . وعلينا نحن القصاصين يقع وزر ما ينتشر من شر ومن أقبح سواء صدرنا في ذلك عن إهمال أو قضينا به حاجة وأصبنا رزقا . وعلينا يقع أيضاً وزر القعود عن إسداء العون ، وترك الضعاف للفشل واليأس ، وازدياد آلام الإنسانية وخبثها ... »

وتلك لعمري فلسفة الشعور التي تزري بالفلسفة . فلسفة صادقة ساذجة نزيهة ، فلسفة الإنسانية الصريحة التي تأبى أن يخنقها النفاق والتحذلق ، وتحيا قريرة في النفوس المؤمنة بالخير ، والقلوب الخافقة بالحب ، والأيدي الممتدة بالإحسان ، والعيون الدامعة والشفاه الباسمة .

أنور لوقا

غاية التدين ومؤمنون غاية الإيمان ، أما غير المتدين فقد أهمل القواعد الروحية ولم يستطع أن يجد سندا فى حياته العملية فصار على نحو من الضيعة والاختلال لا تؤهلانه لمعيشة طبيعية كريمة. فلابد لنا من محاولة تماشى ظروف المجتمع ومن أخلاق جديدة تساير ركب الزمن وتجعلنا نواجه المناسبات المختلفة فى غير خوف ولا تردد ولا جبن بازاء الأحداث

وقد يخطر على بالنا أن نسأل الآن عن هذه الرابطة التى تجعلنا نفكر فى الحرية وفى الأخلاق معا ، فلا يكاد واحد من الباحثين يتعرض لموضوع من موضوعات الأخلاق بغير أن يتعرض لفكرة الحرية بالدراسات والتحليل ، وهذا الاقتران فى أذهان العلماء والفلاسفة غريب إذا نظرنا إلى الأخلاق نظرة اجتماعية خالصة أو إذا جعلنا رضوان الناس وآراء الجماعات مقياسا للأفعال العادية، أو إذا اعتبرنا الأخلاق حسب مقدرة الافراد على الانسجام والتأدب والرضوخ ؛ ولكنه معقول غاية المعقولية إذا بحثنا فى الأخلاق من زاوية خاصة هى التى تحاول أن تحتفظ للفردية بقوتها عند معارضتها للحياة اليومية وعند تنافرها مع الآخرين ، فالحرية تدخل ضمن أبحاث الفلاسفة الأخلاقيين عندما تراعى أن الأخلاق لا تكون فى إخماد الروح الفردية بقدر ما تكون فى عهدها ورعايتها وتهيئتها كما يلزم بالنسبة إلى الظروف المتباينة

فالأخلاق على هذا النحو إنكار للأخلاق ؛ بمعنى أنها تعمل على هدم القانون ورفع الضرورة التى تأتى بها نظريات الباحثين . الاخلاق التى تأخذ بالحرية على الطريقة التى تريدها الوجودية ليست أخلاقا وإنما هى معارضة للأخلاق . والحق أن الاخلاق نفسها لا تصير أخلاقا إلا إذا أكدت الحرية ، إذ أن الاخلاق شىء آخر غير إطاعة الأوامر وتحقيق الفروض، ولعلها تتوفر فى الثورة والرفض أكثر مما تتمثل فى مظاهر الطاعة والرضوخ ، وهذا كله لسبب بسيط وهو أنه لا توجد هناك أوامر ولا تتوفر لدينا أصول ولا يمكن أن يصح ما نشعر به عند مواجهة قاعدة ما ، من القداسة والضرورة ، فعالمنا الأرضى خال تماما من اللوازم ، وإذا تكشفت بعض الأيام صفة اللزوم فى شىء ما فاعلم أنها من ابتكارنا وخلقنا . إن الإنسان هو الذى يضع الأخلاق وأحكامها بما يأتيه من الأفعال كلما تقدم به الزمن، والفعل الاخلاقى - كما ينبغى لنا أن نفهمه - فعل إبداعى لا يراعى القيم ، ولا يماشى أصولا، بل يخلق - هو نفسه - الاصول

وبذلك يخلو الفعل الاخلاقى من التقليد والاحتذاء ولا يقتصر على كونه عملية من عمليات المراجعة ولا تظهر عليه أعراض الرتابة ، فالوجوب صفة غريبة كل الغرابة عن المعنى الاخلاقى للأحكام العامة. فنحن — أى الناس — متروكون فى الارض بغير علامات تكشف لنا الطريق أو قواعد تنظم بيننا المعاملات أو إله يبذل لنا من لدنه الهداية والرشد . هذا هو الاصل الذى تحاول الوجودية أن تقيم عليه بنيانا مذهبياً فى الاخلاق . وقد يكون هذا الاصل داعياً إلى الفوضى أكثر مما هو داع إلى النظام على نحو ما جاء على لسان دستويفسكى حينما قال : « إنه إذا لم يكن الله موجوداً فسيكون كل شىء مباحا » ولكن الوجودية تنظر إلى هذه النقطة بالذات على أنها موضع الانفصال أو محل الاختلاف بين فلسفتهم وفلسفة الآخرين من الفوضويين أو الأبيقوريين ، فعلى الرغم من أن الوجودية تبدأ بدءا يصعب على الكثيرين أن يطرقوه أو أن يحلوا أية مشكلة على أساسه ، فهى تجرؤ على القول بأنها قد أتت بشىء . إنها قد اعترفت بالوضع الحقيق أولا ثم حاولت بعد ذلك أن تنظر فى الأمر .

فماذا فعلت ؟ إنها وقد أنكرت من أول الأمر كل معنى فى الحياة واعترضت على كل دلالة فى الوجود وآمنت بالتفاهة والعبث من وراء الكون الظاهر ومن خلفه ، أرادت أن تضع الثقة فى النفوس وأن توجد الدوافع لدى الأفراد(١) . إن الحياة عبث فلنجعل لها معنى ، والأيام ضائعة فلنحقق لها الغاية . ولا تكون الغايات والمعانى مستمدة — كما هو حاصل حتى الآن — من عالم غير هذا العالم ، ومن كائنات وهمية ، وإنما

(١) نلاحظ هنا شيئاً هاماً وهو أن الحرية من الناحية الوضعية العملية مثلها من الناحية الفلسفية الخالصة قد نبعت من القيد وتولدت عن التقيد . فكما أن الحرية هنالك كما وضعناها فى المقال السابق قد برزت لأول مرة نتيجة للعبودية فهى ها هنا تخرج من العكس المباشر وأعنى به الضيعة والفقدان الذاتى وسط مظاهر الوجود . إن اليأس الذى يتمثل فى العبث والتفاهة هو الأصل فى الأمل الذى يتجلى فى صورة المثل أو فى صورة الغاية التى تفقدها الأفعال الحرة .

مبعثها فعل الانسان بريئا من التقليد خالياً من الأسانيد. فالإنسان وهو يفعل ، يستوحي الحرية ويضع القيمة ويحدد المشروع من غير المشروع ويعين اللائق من غير اللائق. أو قل إن الإنسان يضع نفسه عن طريق الفعل

ولا يأتي التنكر البادي في أعمالهم لفكرة الوجوب أو الضرورة التي تتصف بها القواعد والاحكام الاخلاقية من محاولتهم إبراز فلسفة لا تستند إلى فكرة الله (المزعوم في رأيهم) وإنما يصدرون في اتجاههم هذا عن أصل مذهبي كامل في لمعتين معروفتين عند الباحثين وهما : الوجود والماهية (١) فالوجود بالنسبة إلى الإنسان — كما نعلم — عبارة عن سلسلة الاحداث التي تطرأ عليه وتشكل تاريخه . والماهية هي جملة الخصائص المميزة له من سواه والطبائع التي تجعله هو هو . ومن الأسس النظرية الاولى في الفلسفة الوجودية أن الوجود سابق على الماهية ، بمعنى أن وجود الاشياء ووجود الإنسان ذاته يسبق ظهور الخصائص والصفات التي نستخلصها بشأن هذا الوجود ، فليس هناك فكرة أزلية ترسم الأشياء بارادتها وتمثل الموجودات لمشيئتها ، وليس هناك تقدير سابق لما يصير واقعاً ، بل كل ما هنالك أن الاشياء تتمثل وأن الحقائق تقع ثم تأخذ صفات معينة وتتطبع بطباع خاصة

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الانسان . فهو يوجد أولا ثم يتحدد بعد ذلك. وعلى هذا فليس هناك طبيعة إنسانية كما يقول سارتر تبعاً لعدم وجود إله يرعى الانسان. « فالانسان ليس شيئاً آخر — وبالتالي — غير مايفعله » والخصائص أو الصفات التي تتحدد بها ماهية الانسان في وجوده هي نتيجة لجملة الأفعال التي يأتيها . أو بعبارة أخرى الانسان هو صاحب الأمر في تشكيل ماهيته الخاصة . إذن فمرجع الانسان دائماً إلى نفسه في تكوينه وعند إيجاد مايهمه وخلق الصفات التي تلحقه . ومن هنا بنى سارتر حكمه على الماهية الانسانية بأنها متعلقة بحريته ومتوقفة على إرادته، وهذا صحيح بالنسبة إلى منطق التفكير الوجودي .

فالوجودية فلسفة تنبع من صميم الذات الانسانية وتصدر عن نزعة فردية واضحة . وتؤمن بالوجودية فضلا عن ذلك بأن التاريخ لايحصل من جراء إرادة اجتماعية أو لأن التاريخ ينساق إلى شيء معين وإنما بسبب رغبة الأفراد في كذا وكذا . إن التاريخ حسب الفهم الوجودي ليس شيئاً موجوداً نمر به ، وليس شريطاً دائماً نخطو عليه، وإنما هو شيء يوجد في كل لحظة زمنية بارادة الناس ويتشكل حسب هوى الأفراد بل ويدخل في دائرة الحياة بناء على الأفعال التي يصدرها البشر في اللحظة الآنية لايوجد شيء وإنما يوجد شيء في تلك اللحظة بعد أن تصير حاضراً ثم ينعدم في الثو على صورة ماض . إن الانسان العادي ينظر في الحياة وكأنها تمضي بغير ماتقطع ولا توقف، أمام الفيلسوف — الوجودي خصوصاً — فيشعر بمشكلة الصيرورة على أوضح نحو في العدم الذي يتمثله وفي الحاضر الذي يخلقه وفي الوجود الذي يتسلسل به من غير ضرورة تحتم عليه الكينونة أو عدم الكينونة . حقاً هناك إمكانيات في الحياة تصير على هيئة معينة إذا جاء المستقبل بحكم النمو الحاصل في المظاهر الأرضية ، ولكن هذا لايعني أنها موجودة وجوداً كلياً عاماً في الماضي والحاضر والمستقبل، وإنما يعني أنها تخلق أيضاً بالتوالي الزمني وبالتقدم الوجودي واحدة واحدة إن الوجود يتقدم بنا في الماء الذي لاترتيب فيه ولا تصميم له بغير خطة ثابتة وبغير علامات أكيدة .

وعلى ذلك فإن الانسان إذا فعل شيئاً فانما يفعله وهو يقوم بدور الخالق، فالحرية التي في يده بالضرورة لاتكون مجرد حقيقة للأفعال بل تمد ، على هذا النحو ، منبعاً تنبثق عنه كل الدلالات وكل القيم ، وشرطاً أصيلا لكل تحقق في الوجود كما تقول سيمون دي بوفوار في كتابها عن أخلاق التناقض . ولذلك لاحظنا دائماً إحساس الانسان بالقلق عند مواجهة المستقبل مادام لايجد تحت يديه ركناً يستند إليه ولا خطة يهتدي بها ولامثلا يحتذيه. إن القلق ظاهرة لازمة لحدوث في حياة الانسان بسبب المتاهة المفزعة التي يمضي فيها والمفازة المخيفة التي يخترقها بغير ما تجربة سابقة ولا عماد ثابت . حتى القلق نفسه وجملة الاحساسات الأخرى

---

(١) كما قلنا عن الحرية الفلسفية إنها تبدأ من التفرقة بين الوجود لذاته والوجود في ذاته ، نقول هنا إن الحرية الاخلاقية أو الحرية العملية تبدأ من عنصري الوجود والماهية . فهذان العنصران هما بمثابة البذرة التي تبدأ من عندها تلبينا للافكار على نحو ما تفرعت منها .

والمظاهر النفسية التي يبدو فيها الانسان ليست عبارة عن صفات ممدة إعداداً سابقاً بالنسبة إلينا وإنما هي طريقة من طرائقنا في العمل والحركة داخل نطاق الوجود . فليس هناك ألصق بمماشنا ولا أكثر ظهوراً في حياتنا من صفات الحس والذكاء والغضب والحيوية، ومع ذلك فهذه كلها ليست ضرورة من ضرورات وجودنا بقدر ماهي وسيلة من وسائل اكتشافنا للوجود ونحو من أنحاء انتقالنا من الحاضر إلى الماضي .

فوجودنا إذن يحصل ثم نجعل نحن من هذا الوجود موضوعاً للكلام فنستخلص منه صفات معينة ونلاحظ عليه ملامح بالذات. هذه الصفات وتلك الملامح هي ماتسميه بالماهية . ولكننا مع كثرة التكرار والترديد للمظاهر المتشابهة في حياتنا حسبنا هذه الماهية أزلية تنقض على طول الزمن في صورة أشكال من هذا الطراز أو ذاك . ولكن الواقع أن هذه الأشياء إنما تحدث في كل مرة لأول مرة وتأتي مع اطراد الأحداث بغير تقدير ممهد ولا خطة قبلية . وبذلك ينمحي طابع الجمود والترديد في الحياة ويتدخل عنصر الفن بشياته المتباينة . ولا شك أن الفنان وحده هو الذي يستطيع أن يدرك مدى الرهبة التي تصيب الانسان في تقدمه خلال السحب القائمة من فوقه وهي لاتفتأ تنذره من حين إلى حين بالطر الغزر . فالانسان وسط الحياة ليس غريباً عن مثل هذا الموقف عندما يحس في قرارة نفسه بأنه متروك في الوحدة المفزعة بغير سند إلا من اختياره ورأيه وهواه .

ومن هنا تتدخل المسئولية في اعتبار الوجودية . وذلك طبيعي جداً مادام مرجع الانسان في معاشه إلى ذاته وما دام هو نفسه ابن نفسه ووليد أفعاله . ويقول سارتر « عندما نقول عن الانسان انه مسئول عن نفسه ، لسنا نعني أن الانسان مسئول عن شخصيته المحددة ولكننا نعني أنه مسئول عن كل الناس . » وهذه هي النتيجة الطبيعية لما سبق أن قلناه . فالانسان تبعاً لما يأتيه في وجوده من الأفعال الحرة مسئول عن العالم وعن نفسه طالما كان طريقة من طرق الوجود ، وأنموذجاً من نماذج الكينونة والمسئولية هنا مأخوذة بمعناها العادي في الشعور بأنه الفرد يؤلف لحادثة أو لموضوع من غير اعتراض عليه ومن غير تعد على حريته . فما يحدث لي — كما يقول سارتر ... يحدث لي عن نفسي ويستحيل أن يجري في الارض فعل غير انساني مهما كان الأمر . والمسئولية تأتي من هذه الناحية ، ناحية الانسانية التي تتصف بها الأفعال والوقائع وماجريات الأمور ، ومن هنا لم يكن هناك محل للاعتذار أو الأسف أو الشكوى بعد إتيان أمر من الأمور

إن فلسفة في الأخلاق على هذا النحو لاتغلق الباب أمام الرجاء ولا تصدر عن اليأس كما قال الكثيرون عنها ، وانما على العكس من هذا توجد فسحة للأمل وتضع غير قليل من الايمان والقوة في نفس الانسان كيما يفعل وكيما يأتي فعله عن عقيدة وحساب ويكفي أن يعلم الانسان من نفسه بأنه حر وأنه بهذه الحرية يقرر وجوده الخاص كما يحقق وجود الانسانية جمعاء ، وأنه يبدأ من لاشيء ليصير شيئاً في النهاية ؛ حتى يدرك خطورة موقفه وحتى يعمل بكل قواه في العالم المضطرب الغامض من أجل الوقوف على بر السلام والوصول الى أرض البراءة والخلاص

عبد الفتاح الديدي

موازنة أدبيـــة

بين قصيدتين من عيون الشعر الجاهلي

الاستاذ عبد المنعم خفاجي

١ — أما الأولى فهي معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ ـ ٦٠٠ م) . ومطلعها .

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وأما الثانية فهي مجمهرة أمية بن أبي الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا

٢ — والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها فهي جديرة حقا أن تسمى ملحمة فهي تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ومنها يوم خزاز